مفاهيم بلاغية عند العرب

الجاحظ :

ولم يعرفها الجاحظ بعد أن ذكر كثيرا من تعريفاتها ، واكتفى بأن اختار قولا أعجبه. يقول : «وقال بعضهم . وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه . لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك »

وليس فى هذا التعريف ما يشير إلى المعنى الاصطلاحي الذى حدّده البلاغيون ، والجاحظ فى كل ما ذكر لا يضع بين الفصاحة والبلاغة حدا فاصلا ، فكثيرا ما تأتيان مترادفتين وهما عنده البيان بمعناه الواسع قبل أن يقيده المتأخرون.

المُبَرّد :

وللمبرد رسالة صغيرة سماها «البلاغة» أجاب فيها عن رسالة أحمد بن الواثق الذى سأله : «أى البلاغتين أبلغ؟ أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والكلام المنثور والسجع؟ وأيتهما عندك . أعزك الله . أبلغ؟»

وأجابه المبرد : «إنّ حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها ، وأن يقرب بها البعيد ، ويحذف منها الفضول»

ومصطلح «البلاغة» فى هذه الرسالة لا يعنى العلم المعروف ، وإنّما هو تحديد لبعض معانيها. وإذا لم نجد فيها ما نطمح إليه فاننا نستطيع القول إنّ المبرد أول من أطلق «البلاغة» على بعض رسائله.

العسكري :

ويظهر مصطلح البلاغة بوضوح فى «كتاب الصناعتين» لأبى هلال العسكرى الذى قال : «إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله . جل ثناؤه . علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ». وقال : «البلاغة من قولهم : بلغت المكان ، إذا انتهيت إليها وبلغتها غيرى ، ومبلغ الشىء منتهاه. والمبالغة فى الشىء : الانتهاء إلى غايته ، فسميت البلاغة بلاغة ، لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه ، وسميت البلغة بلغة لأنك تتبلغ بها فتنتهى بك إلى ما فوقها وهى البلاغ أيضا » وأبدى رأيه فى تعريفها ، وحدّدها بقوله : «البلاغة : كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن»

والبلاغة . عنده . من صفة الكلام لا من صفة المتكلم ، ولذلك لا يجوز أن يسمّى الله بليغا ، إذ لا يجوز أن يوصف بصفة موضوعها الكلام. وتسمية المتكلم بأنّه بليغ توسع ، وحقيقته أنّ كلامه بليغ كما نقول : «رجل محكم» ونعنى أنّ أفعاله محكمة. قال تعالى : (**حِكْمَةٌ بالِغَةٌ**) فجعل البلاغة من صفة الحكمة ولم يجعلها من صفة الحكيم ، إلّا أنّ كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بأنّه بليغ كالحقيقة.

وفى كتاب الصناعتين رأيان :

الأول : أنّ الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما ، لأنّ كل واحد منهما إنّما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له.

والثانى : أنّ الفصاحة والبلاغة مختلفتان ، ذلك أنّ الفصاحة تمام آلة البيان فهى مقصورة على اللفظ ، لأنّ الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة إنّما هى إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى

ابن سنان :

وحاول ابن سنان الخفاجى أن يحدد البلاغة ويرسم معالمها غير أنّه لم يأت بالكلمة الفاصلة والتعريف الجامع المانع. ولم يك وحده الذى فعل ذلك فقد مرت بالبلاغة تعريفات كثيرة نقلها الجاحظ فى «البيان والتبيين» وأبو هلال فى «كتاب الصناعتين» ، ولذلك أشار إلى اضطراب القوم فى حدها والوقوف على كنهها ، وقال : «وقد حدّ الناس البلاغة بحدود إذا حققت كانت كالرسوم والعلائم وليست بالحدود الصحيحة فمن ذلك قول بعضهم «لمحة دالة» وهذا وصف من صفاتها فأما أن يكون حاصرا لها وحدا يحيط بها فليس ذلك بممكن لدخول الإشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحد» .

ولم يعرف البلاغة ، وإنما فرق بينها وبين الفصاحة وقال : «والفرق بين الفصاحة والبلاغة ، أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلّا وصفا للألفاظ مع المعانى. لا يقال فى كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا» .

لقد وضع ابن سنان حدّا فاصلا بين المصطلحين ، وحصر الفصاحة فى الألفاظ ، والبلاغة فى المعانى والألفاظ ، وأصبحت الفصاحة شطر البلاغة وأحد جزأيها. وهذه التفاتة حسنة ، ولكنه أطلق «الفصاحة» على موضوعات البلاغة وسمى كتابه «سر الفصاحة» ومعنى ذلك أنّها تشمل الألفاظ والمعانى وقد أوضح ذلك بقوله : «وفى البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزأيها فكلامى على المقصود . وهو الفصاحة . غير متميز إلّا فى الموضع الذى يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره ، فأما ما سوى ذلك فعام لا يختص ، وخليط لا ينقسم»

وابن سنان حينما ينتقل إلى تأليف الكلام يظل مرتبطا بالحديث عن الألفاظ ، لأنّ البلاغة أن توضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازا ، تقديما أو تأخيرا ، قلبا أو حشوا ، وغير ذلك مما فصّل القول فيه.

عبد القاهر :

ولم يفرّق عبد القاهر بين المصطلحين ، لأنّهما يعبر بهما عن «فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما فى نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم»

والفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان تأتى مترادفة عنده ، ومعنى ذلك أنّ الحدود بينها لم تتضح ، وأنّ هذه المصطلحات لم تستعمل وتأخذ معناها الدقيق.

الرازى :

ولم تأخذ لفظة «البلاغة» دلالتها المعروفة عند فخر الدين الرازى وهى عنده : «بلوغ الرجل بعبارته كنه ما فى قلبه مع الاحتراز عن الاختصار المخل والاطالة المملة» ولكنه ربط الفصاحة والبلاغة بالمعنى ، ونحا منحى عبد القاهر فى فهمها.

ابن الأثير :

وقال ابن الأثير إنّ الكلام يسمى بليغا لأنه بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية ، والبلاغة شاملة للألفاظ والمعانى وهى أخص من الفصاحة كالإنسان من الحيوان ، وليس كل حيوان إنسانا ، وكذلك يقال : «كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا». وفرّق بينهما وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهى أنّها لا تكون إلّا فى اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فانّ اللفظة المفردة لا تنعت بالبلاغة وتنعت بالفصاحة إذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاما

السكاكى :

وحينما قسم السكاكى البلاغة ووضع معالمها فى كتابه «مفتاح العلوم» عرّفها تعريفا دقيقا وقال : «هي بلوغ المتكلم فى تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»

وبهذا التعريف أدخل مباحث علم المعاني وعلم البيان ، وأخرج مباحث البديع ، لأنّه وجوه يؤتى بها لتحسين الكلام وهى ليست من مرجعى البلاغة .وللبلاغة طرفان : أعلى وأسفل متباينان تباينا لا يتراءى لأحد ناراهما وبينهما مراتب متفاوتة تكاد تفوت الحصر ، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة ، وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بأصوات الحيوانات ثم تأخذ فى التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حد الإعجاز ، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه.

ولم يعرّف الفصاحة واكتفى بتقسيمها إلى قسمين : قسم راجع إلى المعنى ، وقسم راجع إلى اللفظ ، ولم يجعلها لازمة للبلاغة التى حصر مرجعيها فى المعانى والبيان. وقد أشار القزوينى إلى ذلك بقوله : «وجعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة ، وحصر مرجع البلاغة فى الفنين ، ولم يجعل الفصاحة مرجعا لشيء منهما» [1]. وقال التفتازانى : «لم يجعل البلاغة مستلزمة للفصاحة ، وحصر مرجعها فى المعانى والبيان دون اللغة والصرف والنحو» ، ورأى أنّ مرجعها إلى هذه العلوم جميعا لا إلى مجرد المعانى والبيان.

ولكن السكاكى . مع ذلك كله . رأى أنّ البلاغة بمرجعيها والفصاحة بنوعيها «مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين» ولذلك نراه حينما حلل بعض الآيات القرآنية اتخذ من مرجعى البلاغة ومن الفصاحة مقياسا لإظهار ما فيها من صور بيانية ومن روعة وتأثير فى النفوس.

القزوينى :

وكان الخطيب القزوينى آخر من وقف عند البلاغة من المتأخرين وميز بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم فقال عن الأولى : «وأما بلاغة الكلام فهى مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته» ومقتضى الحال مختلف ومقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر

يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام. وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذى يسميه عبد القاهر النظم.

وقال عن الثانية : «وأما بلاغة المتكلم فهى ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ» وقرر أنّ كل بليغ . كلاما كان أم متكلما . فصيح ، وليس كل فصيح بليغا ، وأنّ البلاغة فى الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره.

وقسّم البلاغة إلى ثلاثة أقسام ، فكان ما يحترز به عن الخطأ علم المعانى ، وما يحترز به عن التعقيد المعنوى علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته علم البديع. فالبلاغة . عنده . ثلاثة :

. علم المعانى.

. علم البيان.

. علم البديع.

ولم يخرج البلاغيون المتأخرون عن هذا التعريف والتقسيم ، وأصبح مصطلح البلاغة يضم هذه العلوم الثلاثة.